لغز الضباب الغامض



محمود سالم

لغز الضباب الغامض

تأليف
محمود سالم



لغز الضباب الغامض

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٠٧ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

محاولة التَّغيير

أخذَت «نوسة» تتبع بعينَيها مجموعة من طيور النَّورس البيضاء، وهي تحوم فوق سطح المياه السَّاكنة ... ثم تنقضُّ مخترقةً سطح الماء، وتخرج وفي منقارها سمكةٌ صغيرة تتلوَّى وتبرق في أشعة الشمس، وبرغم أن المشهد كان ممتعًا ومثيرًا ... فإن «نوسة» لم تكن تشعر بأيَّة متعةٍ ... فقد شاهدته خلال الأيام العشرة التي قضتها في هذا المكان مرَّاتٍ كثيرة، وككلِّ شيءٍ يتكرر ... فإنَّه يصبح مملًّا في النهاية ... فإن «نوسة» لم تكن سعيدة ... بل ربما كانت تشعُر ببعض الأسى على مصير الأسماك الصغيرة.

وأدارت «نوسة» بصرها بعيدًا ... كانت تجلس على شاطئ بحر البقر ... ولم تكن هذه التسمية على مُسمًّى ... فلم يكن بحرًا ... ولم تكن فيه أبقارٌ ... بل هو أحد المصارف الكبيرة في شرق الدلتا ... ويصبُّ في بُحيرة المنزلة.

لم يكن بحر البقر إذن أكثر من مصرفٍ واسع ... يمتدُّ عَبْر الدلتا حاملًا مياه الصرف حتى بُحيرة المنزلة ... وكانت مياه البُحَيرة الساكنة في ذلك اليوم الحار تحمل إلى النفْس السأم والضيق.

وعادت «نوسة» إلى كتابها تقرأ ... وكان «محب» و«لوزة» و«عاطف» يجلسون قريبًا منها وكلٌّ منهم غارقٌ في خواطره ... كان «محب» يفكِّر في قرب نهاية الإجازة وقد أشرف شهر أغسطس على الانتهاء ... وكان «عاطف» يفكِّر في خاله مهندس الريِّ الذي دعاهم إلى زيارته في هذا المكان البعيد ... ثم تركَهم بعد أن وصلَه استدعاءٌ من القاهرة ... أمَّا «لوزة» فكانت تفكِّر أنَّ الإجازة في هذا المكان برغم أنه مكانٌ جديد عليهم تمامًا ... وفيه إمكانياتُ مغامراتٍ مثيرة ... فإنَّهم لم يقابلوا أيَّ لغز، ولم يشتركوا في أيَّة مغامرةٍ ... وكانت تقول لنفسها: ربَّما عثَر الشاويش «فرقع» في المعادي الآن على لغزٍ يحلُّه وحده.

ولم يكن «تختخ» موجودًا ... وقد لاحظ الأصدقاء في الفترة الأخيرة أنَّه يتغيَّب عنهم بلا سببٍ واضح، ولا يظهر إلَّا آخر النهار دون أن يقول لهم أيَّ شيء.

ودقَّ قلب «لوزة» وهي تفكِّر في هذه الحقيقة ... وقالت في نفسها: لعلَّ «تختخ» قد عثَر على لغزٍ هامٍّ ... وسوف يُطْلعنا عليه بعد قليل.

وفجأةً قطع حبل الصمت «عاطف» قائلًا: مدهش. إنَّنا جميعًا مستغرقون في التفكير وكأنَّنا كبار العباقرة!

قال «محب»: على ذِكر العباقرة، هل يعرف أحدٌ منكم أين يذهب العبقري «تختخ»؟ إنَّه هذه الأيام يبدو غامضًا ... يخرج مع «زنجر» كلَّ صباحٍ ولا يعود إلَّا في المساء ... ما هي الحكاية؟

قالت «نوسة»: لقد قال لنا منذُ ثلاثة أيَّامٍ إنَّه زار مدرسة بحر البقر التي ضربها الطيران الإسرائيلي وقتَل فيها عددًا كبيرًا من التلاميذ الأبرياء ... هل يكون غيابه له علاقة بهذا الحادث؟

عاطف: وماذا يفعل في المدرسة؟ لقد أعاد الناس بناءها ... وعادت الدِّراسة برغم ما فعلَه العدوُّ الغاشم.

نوسة: لقد حاولتُ أن أفسِّر غيابه!

عاطف: لعلَّ «لوزة» عندها تفسيرٌ ... فهي التي تكتشف الألغاز، و«تختخ» الآن لغز ... سمين!

لوزة: لا تسخر من «تختخ» في غيابه! ما معنى لغز سمين؟ هل تعيِّره لسمنته؟

عاطف: على مهلك يا «لوزة» ... إنَّني ...

وفي هذه اللحظة سمع الجميع صوت نُباح «زنجر»، وشاهدوا القارب الذي يركبه «تختخ» يظهر عند المنحنى الصغير، قُرب التقاء بحر البقر ببُحَيرة المنزلة.

كان المغامر السمين يُجدِّف و«زنجر» يجلس في نهاية القارب ينبَح معلنًا عن وصولهما وكأنَّه صَفَّارة في سفينةٍ تدخل الميناء، وأخذ المغامرون الأربعة ينظرون إلى القارب في إعجاب وهو يدخل كالسهم؛ فالقوارب التي تُستخدم في بُحيرة المنزلة ويُسمُّون الواحد منها «فلوكة» ... تشبه السهم فعلًا ... طويلة ... ورفيعة ... ومسطَّحة. فهي لهذا سريعةٌ جدًّا ... ولكنَّها معرَّضةٌ للغرق بسرعة في الوقت نفسه ... ولهذا كان التوازن الدقيق لازمًا لتسيير القارب ... وقد كان المغامر السمين متوازنًا جدًّا وهو يدير القارب بمهارة ليصطدم صدمةً خفيفة بالشاطئ ثم يتوقَّف.

وقالت «لوزة» بانفعال: إن «تختخ» يحمل لنا أنباءً جديدة!

نوسة: كيف عرفتِ؟

لوزة: إن عينَيه تلمعانِ ببريقٍ عجيب.

وأقبل «تختخ» يمشي على الأرض الطينية التي انتشَرتْ فيها الأعشاب، صاعدًا شاطئ البُحَيرة الضحل إلى حيثُ الأصدقاءُ ... وقال في صوتٍ مرح: اجمعوا حاجيَّاتكم وهيَّا بنا!

محب: ما هي الحكاية بالضبط؟

تختخ: أظن أنَّكم جميعًا تشعرون بالملل في هذا المكان الموحش. لقد تمتَّعنا بالسكون والسمك، وبالسباحة وأعتقد أنَّنا في حاجةٍ إلى التغيير.

لوزة: هل نعود إلى القاهرة؟

تختخ: لا ... سننتقل إلى جزيرة في وسط البحيرة.

عاطف: وما هو التغيير إذن؟ ... إنَّ هذا يشبه الانتقال من صالةٍ واسعة إلى غرفةٍ مغلقة.

بدا على وجه «تختخ» الضيق وقال: أنتم أحرارٌ إذن ... لا داعي للانتقال ... على كلِّ حالٍ لم يبقَ من الإجازة إلا أيَّامٌ قليلة ... فلنَقضِها نائمين وينتهي كلُّ شيءٍ!

لوزة: أرجوك ألا تتألَّم يا «تختخ»، قلْ لنا ما هي الحكاية، خصوصًا حكاية اختفائك العجيب في الأيَّام الماضية.

هدأ «تختخ» وجلس قائلًا: أمَّا غيابي فقد كنتُ أستكشف المنطقة المحيطة بنا، وبالطبع ستقولون لماذا لا تأخذنا معك ... والسبب أنَّني عرفت أنَّها منطقةٌ حافلة بالأفاعي والحيات من أنواعٍ مخيفة؛ لهذا فضَّلت أن أتحمَّل المخاطر وحدي. وفي إحدى رحلاتي قابلتُ شخصًا ظريفًا جدًّا ... الدكتور «ندا».

نوسة: اسمٌ غريب!

تختخ: إنَّه طبيبٌ بيطري عجوز ... قضى حياته في الاهتمام بالخيول ... فلما أُحيل إلى المعاش اختار جزيرة «ابن سلام» ليُربي فيها عددًا من الخيول العربية الأصيلة ... يبيعها للهواة بمبالغَ ضخمة ... وأنتم تعرفون أنَّني أحبُّ الخيول وأعتبرها من أنبل الحيوانات ... وقد رأيتُ حصانًا يقف في القرية القريبة، ووقفتُ أنظر إلى الحصان معجبًا، وحضَر الدكتور «ندا» فحيَّيتُه وسألتُه عن الحصان ... وهكذا تعارفنا.

عاطف: ما دام دكتورًا بيطريًّا ... فلن يكون عندنا مشكلةٌ صحيَّة.

لوزة: سخيفة!

تختخ: واليوم ذهبتُ لمقابلة الدكتور، وعرف أنَّنا نُعاني من الملل هنا، فدعانا لقضاء بقيَّة الإجازة عنده في الجزيرة ... هل عندكم مانعٌ؟

عاطف: وكيف نترك استراحة الريِّ وفيها كل حاجيَّات خالي؟

تختخ: هناك الخفير الذي يقوم بالحراسة ... وسنترك رسالةً لخالك إذا حضَر ونحن ما زلنا في الجزيرة، ثم نعود للسلام عليه قبل سفرنا.

عاطف: بصراحة إنَّني لستُ متحمسًا لهذه الرحلة ... فما معنى أن ننتقل من شاطئ إلى جزيرة؟

محب: تستطيع أن تبقى وحدكَ هنا!

لوى «عاطف» فمه في غيرِ رضًا ... وقام يجمع الحاجيَّات مع بقيَّة المغامرين.

وقال «محب»: سنحتاج إلى قاربٍ آخر ... وشخصٍ يعود بالقاربَين إلى الاستراحة!

تختخ: أرجو أن تُنادي الخفير «عبود» يا «عاطف». وأسرع «عاطف» لاستدعاء الخفير الذي حضر منزعجًا، وأخذ يبدي مختلف الاعتراضات على انتقالهم دون استشارة مهندس الريِّ ... ولكنَّ «تختخ» طمأَنَه على أنَّهم سينتقلون إلى منطقةٍ آمنة.

قال الخفير: ولكن يا أستاذ ... هذه الشبورةُ!

تختخ: نحن لا نخاف الشَّبورةَ!

لوزة: ما هي الشَّبورة يا «تختخ»؟

تختخ: إنَّها ضبابٌ كثيف يكون قريبًا من سطح الأرض أو البحر وتتعذَّر فيه الرؤية.

الخفير: قد تُقابِلنا الشَّبورةُ الآن؛ فهذا هو مكانها بين هذا الشاطئ وجزيرة «ابن سلام»!

تختخ: سيكون شيئًا جميلًا أن نرى هذه الظاهرة الطبيعية ... وإن كنتُ أرجِّح أنَّها لا تظهر إلا في الصباح الباكر ... وربَّما في المساء!

أخذ الخفير يهزُّ رأسه آسفًا، وهو يساعدهم في نقل حاجيَّاتهم إلى القاربَين. وبعد أن انتهَوا من وضع كل شيءٍ في مكانه ... انطلق القاربان فوق المياه الساكنة ... وكانت «لوزة» تُكرِّر بينها وبين نفسها كلمة «الشبورة» ... الشبورة ... إنَّها كلمةٌ مفزعة ... فهل تقابلهم الشبورة؟

هكذا أخذَت «لوزة» تفكِّر ... والقاربان يشُقَّان طريقهما مسرعَين عَبْر البحيرة.

أبو المناديل

سار القاربانِ ... وكانت الساعة قد أشرفَت على السادسة مساءً، واكتسى سطح البحيرة اللامع بمسحةٍ جميلة من أشعة الشمس الغاربة. وعلى طول الشاطئ ظهرت خيامٌ جميلة ملوَّنة أُعجبَت بها «لوزة» وصاحت: كم هي جميلةٌ هذه الخيام! مَن يملكها؟

قال «عبود»: إنَّها مِلكٌ للغجر ... وهم قبائلُ رحَّل ... ولكنَّهم منذُ فترةٍ طويلة اختاروا هذا المكان واستقُّروا فيه حيثُ يتوافر العشب لرعي ماشيتهم ... وهي في الوقت نفسه منطقةٌ قريبة من أربعة بلادٍ كبيرة؛ هي «دمياط» و«بورسعيد» و«الإسماعيليَّة» و«المطريَّة دقهليَّة»؛ حيثُ يذهبون لبيع منتجاتهم من الجبن واللبن والمنسوجات اليدوية، وتقوم النساء بقراءة البخت.

نوسة: شيءٌ مثير!

عبود: هل تحبين أن تَرَي بختَك؟ إنَّ السيدة ستطلب منكِ قرشًا ثم تقرأ لك طالعكِ ... مستقبلكِ ... وهل ستنجَحين في المدرسة أو لا ...

قال «عاطف»: وهل نصل إلى جزيرة «ابن سلام» أو إلى جزيرةٍ أخرى؟

عبود: إنَّ هذه الخيام ثمينة ... فالسيدة من الغجر تقضي سنةً كاملةً في نسجها ... وقد رأيتُ أحد السوَّاح الأجانب يعرض خمسين جنيهًا ليشتري إحدى الخيام ولكنَّ صاحبتها رفضَت.

لوزة: معها الحق. إنَّني لم أرَ في حياتي شيئًا أجمل من هذا!

وتجاوز القاربانِ نهاية الشاطئ ... ثم أخذا يتجهان شرقًا في الطريق إلى جزيرة «ابن سلام». وبرز من أحد الجوانب جزيرةٌ صغيرة أخذَت تكبر تدريجيًّا.

فقالت «نوسة»: هل هذه جزيرة «ابن سلام»؟

ردَّ «عبود»: لا! إنَّها جزيرةٌ صغيرة «ابن سلام» أكبرُ بكثير، ولكنَّ هذه الجزيرة لها شهرةٌ خاصة.

واقترب القاربانِ أكثر ... ولاحظ الأصدقاء أنَّ الجزيرة يغطِّيها الغاب الأخضر حتى تبدو كأنَّها كتلةٌ من الغاب. كانت هناك مناديلُ معلَّقة ... حمراء ... صفراء ... خضراء وسوداء، وألوانٌ أخرى.

كان منظرًا رائعًا وغريبًا، وصاحت «نوسة»: ما هذا؟

قال «عبود» وهو يبتسم: هذه جزيرة «أبو المناديل»!

لوزة: وما هي حكاية هذه المناديل؟ هل ينشر سكَّانها مناديلهم كلها في يومٍ واحد؟

ضحك «عبود» وقال: هذه جزيرةٌ خالية من السكَّان، وهذه المناديل يعلِّقها مَن له حاجةٌ فتُقضى.

لوزة: لا أفهم ماذا تقصد!

عبود: يقولون إنَّ هناك وليًّا من أولياء الله يسكن هذه الجزيرة، فإذا كان الشخص مريضًا مثلًا يأتي إلى هنا ويعلِّق منديلًا ويطلب من «أبو المناديل» أن يشفيه ... وإذا كان له عدوٌّ جاء وعلَّق منديلًا أسود وطلب من «أبو المناديل» أن يقتصَّ منه ...

تختخ: وإذا جاء تلميذ وعلَّق منديلًا وطلب من «أبو المناديل» أن ينجحَ ينجحُ؟!

صاح «عاطف»: قرِّبوني منها ... أريد أن أُعلِّق عشرة مناديل ... فعندي طلباتٌ كثيرة!

قال «محب»: وهل جرَّبتَ أن تطلب شيئًا يا «عبود»؟

عبود: لا يا أستاذ ... ولكنِّي سمعت أن «أبو المناديل» يقضي كثيرًا من الحاجات!

كان «تختخ» يستمع إلى كل هذا وهو يفكِّر ... شيءٌ غريب ... معتقدات الناس في هذا العالم ... ولكن ما كان يشغله أكثر هو حكاية الشبورة، فقال يسأل «عبود»: وأين مكان الشبورة يا «عبود»؟

عبود: هنا على جزيرة «أبو المناديل»!

تختخ: مدهش!

عبود: إنَّ الشبورة عندما تنزل يغطي الضباب الجزيرة، ومساحةً كبيرة من الفراغ حولها ... حتى لا يكاد الإنسان يرى إصبعه ... وهم يقولون إن «أبو المناديل» ... يأتي في الشبورة ويأخذ المنديل الذي سيقضي لصاحبه حاجته ... فإذا زالت الشبورة، وجاء صاحب الطلب فوجد أن منديله قد أُخذ ... فهذا يعني أن طلبه سيُجاب!

تختخ: مدهش!

عبود: لهذا لا يقترب أحدٌ من الجزيرة مطلقًا في أثناء نزول الشبورة ... بل إنَّ مراكب الصيد تبتعد عنها خوفًا من أن يحدث لها شيء.

تختخ: ألم يجرؤ أحدٌ مطلقًا على دخول الجزيرة في أثناء الشبورة؟

عبود: نعم ... سمعتُ أن بعض الأشخاص دخلوا الجزيرة في الضباب!

تختخ: وماذا حدث لهم؟

عبود: لم يعودوا!

اعتدل «تختخ» في جلسته وقال: هل أنت جادٌّ؟

عبود: طبعًا! لقد اختفى رجلٌ جاء من «بورسعيد»، وكان جريئًا، فانتظر نزول الشبورة، ودخل الجزيرة، ولم يعُد!

تختخ: وهل أبلغ أحدٌ الشرطة؟

عبود: لا يا أستاذ ... لقد خافوا من انتقام «أبو المناديل» وبخاصةٍ أنَّ قسم الشرطة بعيدٌ عنَّا ... إنَّه يحتاج إلى سفرٍ للوصول إليه.

تجاوز القاربان جزيرة «أبو المناديل» و«عبود» ينظر بعيدًا ... والمغامرون الخمسة ينظرون إلى الجزيرة الغامضة باهتمامٍ شديد ... وكلٌّ منهم يفكِّر في هذا الضباب الغامض الذي ينزل على الجزيرة ... وهذا الشيخ «أبو المناديل» الذي يأتي مع الشبورة لقضاء حاجات مَن يريد مِن الناس ... شيءٌ مدهش لم يسمعوا بمثله من قبلُ!

وابتعدت الجزيرة شيئًا فشيئًا وغابت في الأفق ... والمغامرون الخمسة صامتون.

كانت كلمات الخفير العجوز «عبود» ترنُّ في آذانهم ... وتهبط إلى قلوبهم ... وتصعد إلى رءوسهم ... كلماتٌ غامضة على وضوحها ... مدهشةٌ على سذاجتها ... تشدُّ انتباههم كمغامرين إلى أشياءَ غامضةٍ تحدث في عالمٍ بدائيٍّ وكأنَّها أساطيرُ عمرها آلاف الأعوام.

وعندما آذنت الشمس بالمغيب ... كانت مئاتٌ من مراكب الصيادين تتجه إلى مدينة «المطريَّة دقهليَّة» التي بدأَت أضواؤها الخفيفة تلمع في الأفق ... وبدَت الأشرعة البيضاء في غروب الشمس وكأنَّها في مهرجان ... وأشار «عبود» إلى قبَّة مسجدٍ وسط بقعةٍ سوداء في وسط الجزيرة وقال: هذه هي قبَّة سيِّدي «ابن سلام» ... الذي سُميت جزيرة «ابن سلام» باسمه.

عرف المغامرون أنَّهم يقتربون من هدفهم ... وزادت حركة أذرعهم في التجديف بعد أن كانوا قد أبطَئوا نتيجة التعبِ من ناحية ... وحديثِ «عبود» عن الضباب الغامض من ناحيةٍ أخرى.

وشيئًا فشيئًا أخذ القاربان يقتربان من الجزيرة ... وعشراتُ المراكب تمرُّ بالمغامرين مسرعةً في طريقها إلى «المطريَّة دقهليَّة»، أَشهَر مدينةٍ تتجر في الأسماك في بُحيرة «المنزلة».

قالت «نوسة»: سنصل في الظلام! فكيف نعثر على الدكتور «ندا»؟

ردَّ «عبود»: إنَّ الجزيرة صغيرة، وإصطبلات الدكتور «ندا» تقع في الجانب الغربي للجزيرة ... وستجدونها بسهولة.

عاطف: هل ستعود يا «عبود» الليلة؟

عبود: طبعًا يا أستاذ ... فإنَّني لا أستطيع ترك الاستراحة دون حراسة، إنَّ بعض الغجر الذين رأيتُم خيامَهُم من المجرمين ... وبعضهم هاربٌ من أحكامٍ بالسجن، ولا يستطيع أحدٌ أن يصل إليهم.

محب: كيف؟

عبود: إنَّهم يعرفون أماكنَ خفيَّة في البحيرة لا يعرفها أحدٌ غيرهم، وهم يختفون فيها بالأسابيع بل بالشهور والسنوات ثم يظهرون بعد أن ينساهم الناس ... وبكلِّ صراحة ... نحن نخافهم جدًّا ...

لوزة: الحمد لله أن خرجنا من هذه المنطقة سالمين!

عبود: معكِ كلُّ الحق ... إنَّهم أشرارٌ مرعبون ...

ووصل القاربان إلى الشاطئ ... وكان شيئًا جميلًا من الدكتور أن يراقبهم بنظَّارته المُكبِّرة من بعيد ... فأرسل مَن ينتظرهم ... وكان ولدًا صغيرًا في عمر «عاطف» رحَّب بهم وحمل الأمتعة معهم.

وودَّع الأصدقاء «عبود» وشكروه ... ووعدوه أن يزوروه قبل سفرهم، ثم حملوا حاجيَّاتهم وساروا خلف الولد الصغير الذي عرَّفهم بنفسه ...

كان اسمه «بركات» وشهرته «بكبك» ... وقد ضحكَت «لوزة» عندما حاولَت نطق كلمة «بكبك»، وأعجبَتْها الكلمة فأخذت تردِّدها حتى وصلوا إلى قرب الإصطبلات، حيث كان الدكتور «ندا» يقف وبجواره زوجته.

ورحَّب الدكتور بالأصدقاء بحرارة أسعدتهم، وقالت زوجته وهي تقبِّلهم: إنَّني لم أُنجب فأنتم إذن أولادي ... ومرحبًا بكم!

وهزَّ «زنجر» ذيله متضايقًا ... فلم يرحِّب به أحدٌ ... ولكن فجأةً قامت معركةُ ترحيبٍ شديدة ... عندما ظهر كلبان ضخمان من بين الإصطبلات ورفعا صوتيهما بنُباحٍ عميق،

ووقف «زنجر» رافعًا رأسه في كبرياء … ثم أطلق نُباحه القوي معلنًا قبولَه لأيَّة معركة تُفرَض عليه.

وتقدَّم الكلبان وهما ينبَحان بشدة … وظلَّ «زنجر» واقفًا دون خوف، وبدا للجميع أن صراعًا دمويًّا سيقع فورًا.

حياةٌ جديدة

ولكن المعركة التي توقَّعها الجميع لم تقع ... فقد تدخَّل «تختخ» لإيقاف «زنجر» وتدخَّل الدكتور «ندا» لإيقاف الكلبَين الشرسَين.

وفهمَت الكلاب الثلاثة أنَّ المسئولين عنها لا يريدون معارك، فأخذت تدور وتلف كأنَّها تقوم بعملية تعارف ... وفي الوقت نفسه جس نبض لمعرفة الأقوى.

وتقدَّم الدكتور وزوجته الأصدقاءَ إلى مقرِّهم ... كان كشكًا خشبيًّا غريب الشكل مكوَّنًا من دورَين ... كأنَّه برج ... وقال الدكتور ضاحكًا: الحقيقة أنَّني أستخدمه كبرجٍ متنقِّل ... أراقب منه الخيول ... وأحيانًا أقضي فيه الليل ... وستنقسمون إلى مجموعتَين؛ مجموعة تنام في الغرفة العليا والثانية في الغرفة السفلى.

وتقدم «بكبك» يضع الحقائب مع الأصدقاء وكانت الشمس قد غَربَت تمامًا ... وخلَّفتْ وراءها أفقًا شديد الاحمرار ... وفجأةً سمع الأصدقاء صوت مكينة تدور، وقال الدكتور: إنَّها مكينة إضاءةٍ متنقلة ... تنير جميع الأكشاك وإصطبلات الخيول!

قالت زوجة الدكتور: سنترككم حتى موعد العشاء ... إنَّنا عادةً نتعشَّى في التاسعة.

وانصرف الدكتور وزوجته، وقالت «لوزة»: سنأخذ أنا و«نوسة» الغرفة العليا!

وبدءوا يفتحون الحقائب بمساعدة «بكبك» ويفرشون أغطيتهم، ويضعون ملابسهم في أماكنها.

قال «بكبك»: إن الدكتور لن يترككم تنامون حتى تُشاهِدوا مجموعة الخيول. إنَّه لا يترك أحدًا يزور الجزيرة إلَّا إذا عرض عليه مجموعته.

تختخ: وهل هي حقًّا مجموعةٌ ممتازة؟

بكبك: طبعًا ... وهناك بعض الأجانب جاءوا بضع مراتٍ لشراء بعض السلالات بمبالغَ كبيرة.

وانتهى الأصدقاء من ترتيب حاجيَّاتهم ... وقال «بكبك»: سأذهب لمساعدة السيدة «صفيَّة» في إعداد العشاء.

وانصرف «بكبك» مسرعًا ونظر «محب» في ساعته ثم قال: ما زال أمامنا نصف ساعة، هل نتجول في الجزيرة؟

تختخ: لندع ذلك للصباح ... إنَّها جزيرةٌ صغيرة ... وفي خلال ساعة يمكن أن نعرف كلَّ شبرٍ فيها.

لوزة: تعالَوا ننظر إلى البُحَيرة من أعلى البرج!

وصَعِدوا جميعًا إلى الدور الثاني يشبه البرج فعلًا ... ووقفوا يتأمَّلون ما حولهم ... كانت الليلة مظلمةً ... ولكنَّ النجوم البعيدة كانت تُضيء البُحَيرة ... وعلى امتداد البصر غربًا كانت أضواء مدينةٍ بعيدة تتلألأ وقال «محب»: أعتقد أنَّها «بورسعيد»!

وشرقًا كانت مدينة «المطرية» واضحة ... أما شمالًا وجنوبًا فلم يكن هناك إلَّا أفقٌ أسود يحدِّد من بعيد بحيرة «المنزلة» ... أكبر بُحيرات مصر، وأوفرها إنتاجًا للأسماك. وفجأةً أشار «عاطف» إلى شيء يزحف فوق الماء ... شيءٍ ضخم كأنَّه سفينة بلا تفاصيل، أو حيوانٌ خرافي بلا أقدام ... شيءٌ أبيض يتجه شمالًا من حيث كانوا عند بحر البقر ...

وقال تختخ: إنه الضباب الغامض!

ووقف الأصدقاء مذهولين أمام الظاهرة الطبيعية المدهشة ... ولولا أنهم يعرفون حقيقتها لظنوا أنَّها شيءٌ خارق للطبيعة، شيءٌ مخيف لا مثيل له ... ومضى الشيء الأبيض الضخم سائرًا فوق الماء، وقال «عاطف»: إنَّها متجهة إلى جزيرة «أبو المناديل»!

وساد الصمت ... والعيون العشَرة تتابع الضباب وهو يسير ببطءٍ على وجه الماء، فيخفي خلفه كل ما يقع في طريقه من أشياء ...

ثم قالت «لوزة»: لا يمكن أن يُوجد مثل هذا الشيء، ولا يُوجد وراءه سرٌّ غامض!

ضحك المغامرون وقال «عاطف»: هل تتصوَّرين أن بداخله ساحرًا خرافيًّا يحوِّل التراب إلى ذهب ... والماء إلى عسل؟

لم تَرُد «لوزة» فقد سمعوا صوت أقدامٍ مقبلة، ثم صوت «بكبك» يناديهم فنزلوا مسرعين، وأخذوا طريقهم خلفه عَبْر التلال الصغيرة التي تغطِّي جزيرة «ابن سلام»، ثم اتجهوا جنوبًا حتى أشرفوا على نيرانٍ متوهجة ... وكانت تفوح في الجو رائحة الشواء ... حتى إنَّ «زنجر» نبح مرتَين إعلانًا لابتهاجه.

قال «تختخ»: لحمٌ مشوي!

بكبك: نعم ... إنَّ السيدة «صفيَّة» قد ذبحَت أحد الخراف لإعداد عَشاءٍ لكم.

نوسة: يا لها من سيدةٍ كريمة!

كانت النيران في حفرةٍ واسعة، وقد جلس حولها الدكتور وزوجته، وبعض مَن يعمل معهم ... واستقبل الحاضرون المغامرين استقبالًا طيبًا ... وجلسَت «نوسة» و«لوزة» بجانب السيدة «صفيَّة» وجلس بقية المغامرين حول الدكتور، على حين كان أحد الأشخاص يحرِّك الخروف المشوي فوق النار ... والدهن يسيل منه ... على نار الخشب فتزداد رائحة الشواء.

قال الدكتور: أرجو أن تقضوا معنا وقتًا طيبًا!

تختخ: باسم زملائي وباسمي أشكرك أنت وزوجتك المحترمة على هذه الدعوة الكريمة.

الدكتور: مرحبًا بكم ... إنَّنا نَسعَد بالضيوف؛ فلا أحد يأتي إلى جزيرة «ابن سلام» إلا تجَّار الخيول الذين يتعاملون معي.

تختخ: سمِعتُ من «بكبك» أنَّ بعضهم يأتي من أوروبا وأمريكا!

ابتسم الدكتور وقال: هذا صحيح ... فعندي مجموعة من أفضل الخيول العربية، وهواة هذا النوع من الخيول يأتون من جميع أنحاء العالم لشرائها، وبالصدفة سيأتي غدًا مليونير أمريكي لشراء بعضها ... وسوف تحضُرون عرضًا للخيول أمامه.

لاحظ «محب» أنَّ الكلاب الثلاثة تجلس متجاورةً ... وكأنها تصادقَت مثلما تصادَق المغامرون وبقيَّة الحاضرين ... وكانت عيون الثلاثة مركَّزة على الخروف الذي كان يدور على النار. وقد اكتسى باللون الأحمر والأسود دليلًا على أنه قد نضج ... وتقدَّم أحد الرجال من الخروف، وأخرج سكينًا طويلة وهوى بها على الفخذ فقطَعه بعد ضرباتٍ سريعة متلاحقة ... وسرعان ما كان يوزِّع قطعًا كبيرة من اللحم الساخن الناضج على الجالسين ... وجاءت أطباق السلطة، والخبز الذي كان ينضج على فرنٍ صغير بجوارهم ...

كانت حفلةً خلوية شهيَّة بكل ما يمكن أن تحويه من متعةٍ في ليلةٍ صيفيَّة جميلة ... وانهمَك الأصدقاء في الأكل، وكلما أشرفوا على الانتهاء مما أمامهم من اللحم، وجدوا قطعةً أخرى شهيَّة، ودعوةً لمزيد من الأكل.

وقالت «لوزة» وهي تضع طبقها جانبًا: هذه ألذُّ أكلةٍ أكلتُها في حياتي!

قالت السيدة «صفيَّة»: ولكنَّكِ لم تأكلي ما يكفي!

لوزة: لقد أكلت ما يكفيني سنةً كاملة!

وكانت الكلاب الثلاثة وخاصةً «زنجر» قد انهمكَت في الأكل، وكان «زنجر» يحدِّث نفسه بأنَّه لم يرَ في حياته طعامًا أكثر ولا أمتع من هذا ... وتمنَّى أن يبقى أصحابه في هذا المكان إلى الأبد.

انتهت حفلة الطعام ... وبدأَت حفلةٌ أخرى ... حفلةُ سَمرٍ جميلة ... اشترك فيها الرجال الثلاثة الذين يخدمون الدكتور ... و«بكبك» والأصدقاء.

لعبوا لُعبة الاِستُغمَّاية ... وغيرها من الألعاب المسلِّية ... وامتلأَت الجزيرة بصدى ضحكاتهم ... حتى إذا تقدَّم الليل ... كان الجميع قد استعدُّوا للنوم بعد هذا اليوم الحافل ... وقال لهم الدكتور: إنَّ عرض الخيول سيبدأ في السابعة صباحًا قبل أن ترتفع أشعة الشمس.

وعاد الأصدقاء إلى البرج الذي ينزلون فيه ... وسرعان ما استغرقوا في نومٍ هادئ ممتع.

في الصباح الباكر كانت «لوزة» أول مَن استيقظ ... فتحَت نافذة البرج، وأطلَّت على العالم حولها ... رأت جزيرة «ابن سلام» التي تشبه سمكةً كبيرة مستلقية في المياه ... ورأت من بعيدٍ بقيَّة الضباب الغامض وهو يتلاشى في أشعة الشمس ... وعلى اليسار رأت رجال الدكتور وهم يُخرجون الخيول من حظائرها، ثم سَمعَت صوت موتور، ورأت يختًا أنيقًا يتقدَّم من الجزيرة على بُعد ثلاثة كيلومتراتٍ تقريبًا، ثم سَمعَت صوت حوافرِ حصانٍ يجري بالقرب منها ... ورأَت الدكتور «ندا» يركبه، ويجري كالسهم ... وكان واضحًا أنه يقوم برياضته اليوميَّة.

أسرعَت «لوزة» تُوقِظ الأصدقاء ... كانت الساعة السادسة والنصف ... وفي دقائقَ كانوا قد انتهَوا من ارتداء ثيابهم ... ثم انطلَقوا إلى معسكر الدكتور الذي يبعُد عنهم بنحو كيلومتر.

وجدوا الخيول تقف في صفَّين متجاورَين ... الخيول صغيرة السن في جانب، والخيول الكبيرة في جانب ... وعلى مسافة من كل الخيول وقف حصانٌ وحيد أسود ... ذُهل الأصدقاء عندما رأَوه ... كان تحفةً في جماله.

كان جسم الحصان شديد الرشاقة ... شديد السواد ... عدا بقعة بيضاء صغيرة كالنجمة على رأسه بين أُذنَيه تمامًا ... وكانت عيناه كبيرتَين بشكلٍ غير عادي ... لونهما بلون الذهب ... عريض الصدر ... أخمص البطن ... رشيق الأطراف.

وظهر الدكتور وهم يحدِّقون في الجواد فقال لهم بفخر: هل رأيتم؟ إنَّه قد يكون أجمل جواد في العالم. إنَّه يستطيع أن يكسب أيَّ سباقٍ كما تسبق سيارة مرسيدس عربةً يجرُّها حمار.

يرموك

كانت في صوته نبرة اعتزاز ... ثم نزل من على صهوة جواده، وتقدَّم من الحصان الأسمر وناداه في حُبٍّ حقيقي، وهو يربتُ على معرفته المنتصبة الشعر: «يرموك»، «يرموك».

ثم التفت إلى الأصدقاء وقال: لقد سمَّيتُه على اسم معركة العرب الشهيرة؛ فهو جوادٌ عربيٌّ أصيل.

واستجاب الجواد للنداء ... وأحنى رأسه ثم رفعه ... وأخذ يتمسَّح بصاحبه، وجاء رجلٌ يجري وقال للدكتور: لقد وصل الأمريكيُّ!

قال الدكتور بهدوء: إنَّني في انتظاره!

واختار الأصدقاء تلًّا صغيرًا جلسوا فوقه ... وظهَر الأمريكي ... ومعه رجلٌ آخر وسيدة ... وتقدَّم منهم الدكتور مرحبًا ... وسَمِعه الأصدقاء يناديه باسم مستر «وولتز» ... كان «وولتز» نموذجًا للأمريكي الثري ... طويلًا ... يرتدي ملابس صارخة الألوان ويحمل منظارًا وكاميرا ... أما الرجل الآخر فكان واضحًا أنه حارسٌ شرس المظهر ... تحت قميصه الخارج من فوق بنطلونه انتفاخٌ واضح ... وعرف الأصدقاء أنه يحمل مسدسًا ضخمًا ... أما السيدة فكانت أشبه بنجوم السينما ... كانت ترتدي بلوزةً قصيرة ... وبنطلونًا ضيقًا ... وقبَّعةً واسعة من الخوص.

وأخذَت الخيول تسير ... وقد جلس الأمريكي وزميله والسيدة على كراسي حمراء أحضرها الدكتور من الكشك الكبير الذي يقيم به ... وكان الرجال يأتون بكل حصانٍ ويدورون به أمام الأمريكي الذي كان يقوم ويفتح فم الحصان ... ويمُر بيده على ظهره وأطرافه.

كان المعروض للبيع من الخيول ستة من الصغار ... وأربعة من الكبار ... شاهدها الأمريكي جميعًا ... وفجأةً قام من مكانه ... واتجه إلى حيث يقف «يرموك». ولاحظ

المغامرون الخمسة على الفور أنَّ الرجل ذُهل أمام الحصان الأسود ... وأخذ يدور حوله ويضع يده على رقبته ... وينظر إلى عينَيه ... وقامت السيدة الرشيقة فانضمَّت إليه.

والتفت الأمريكي إلى الدكتور «ندا» قائلًا: هذا!

هزَّ الدكتور رأسه قائلًا: ليس للبيع!

الأمريكي: سأدفع لك أيَّ مبلغ!

عاد الدكتور يهزُّ رأسه: ليس للبيع!

بدا الضيق على وجه الأمريكي، وأخذ يتحدث إلى السيدة التي معه ويشير بيدَيه، وجاء عصير الليمون فشرب الأمريكي بعصبية ... ثم التفت إلى الدكتور ووضع يده على كتفه قائلًا: اسمع يا صديقي ... سأدفع لك مبلغًا لا يمكن أن ترفضه.

ابتسم الدكتور «ندا» وقال: قلتُ لك يا مستر «وولتز» إنَّه ليس للبيع، إنَّ «يرموك» صديقي إذا صح أن تفهم معنى الصداقة بين رجل وحصان ... ولعلَّك توافقني أنَّ الصديق لا يبيع صديقه بأيِّ مبلغ!

صاح «الأمريكي» غاضبًا: في هذه الحالة ... لن أشتري أيَّ حصانٍ آخر!

ظلَّ الدكتور «ندا» هادئًا وقال: إنَّك حرٌّ تمامًا يا مستر «وولتز»، وعلى كل حالٍ فإنَّني لا أهتم كثيرًا بالبيع؛ فعندي من المال ما يكفي.

واستدار «وولتز» إلى رفيقَيه ... الحارس القبيح الشكل والسيدة، وقال: هيَّا بنا ...

قال الدكتور «ندا»: ألا تبقَون للغَداء؟

قال «وولتز» مُشيحًا بيده: لم يعُد عندي أيَّة رغبة في الطعام!

وانصرف «وولتز» على الفور، واستدار الدكتور إلى المغامرين وقال: آسف جدًّا ... لعلَّكم لم تتضايقوا لهذا الموقف الغاضب!

قام المغامرون واتجهوا إلى «يرموك»، وقال «تختخ»: إنَّنا كنا سنتضايق لو بعتَ هذا الحصان المدهش ... فيجب أن تُبقيَه في مصر!

قال الدكتور: أستأذنكم؛ فسوف أذهب في عملٍ إلى «المطريَّة» وقد لا أعود الليلة، وأرجو أن تقضوا وقتًا طيبًا في الجزيرة.

وغادرَهم الدكتور، وأخذ الرجال يُعيدون الخيول إلى حظائرها ... وانصرف الأصدقاء للتجول في أنحاء الجزيرة ... وفي نحو ساعتَين كانوا قد عرفوا كل شيءٍ عنها.

قالت «نوسة» فجأةً: لا أعتقد أنَّنا سنجد هنا أيَّ شيءٍ مثير ... إنَّ الحياة تبدو هادئة جدًّا، الدكتور والسيدة «صفيَّة»، والرجال الثلاثة و«بكبك» ... ونحن ... والجزيرة الصغيرة.

قال «تختخ» معلقًا: لقد نسيتَ الخيول!

مرَّ يومان ... وتحقَّق ما قاله «تختخ» عن الخيول ... ففي صبيحة اليوم الثالث اكتشف الدكتور «ندا» اختفاء حصانه الجميل «يرموك»!

كان الدكتور قد استيقظ مبكرًا كعادته ليقوم برياضته الصباحية على ظهرِ أحدِ خيوله، وعندما ذهب وجد حارس الإصطبلات مُوثَق اليدَين والقدمَين والفم ... وقد اختفى «يرموك» من حظيرته.

وبدأت الجزيرة الصغيرة تغلي بالحركة ... واستيقظ المغامرون الخمسة كعادتهم، وكان أوَّل شيء وقعَت عليه عيونهم وجه «بكبك» المرتاع ... كان الولد الصغير يردِّد في فزع: لقد اختفى «يرموك»!

نوسة: اختفى! كيف؟

بكبك: لا أحد يعرف ... لقد ذهب الدكتور إلى الإصطبل ليراه في الصباح الباكر فلم يجده، ووجد «عبد السميع» الحارس مُوثَقًا ومُلقًى في حفرة وقد اختفى الحصان.

ارتدى الأصدقاء ثيابهم على عَجَل، وانطلقوا وخلفهم «زنجر» إلى منطقة الإصطبلات، ووجدوا الدكتور «ندا» ... وقد انعكس على وجهه ما يعانيه من ألم ... ولكنَّه كان متمالكًا أعصابه. وعندما رآهم قال بصوتٍ حزين: لقد اختفى «يرموك»!

تختخ: لقد قال لنا «بكبك» منذ لحظات ... ولكن كيف حدث هذا؟

الدكتور: لا أدري ... هناك كلب الحراسة ... «رعد»، والحارس «عبد السميع» ... وقد وجدتُ «رعد» يتجوَّل حول الحظائر كعادته ... ووجدتُ «عبد السميع» مُلقًى في حفرة مُوثَقًا.

وسكت الدكتور لحظة ثم قال: سأذهب إلى «المطريَّة دقهليَّة» لإحضار رجال الشرطة!

وانصرف الدكتور. وسأل «محب» «بكبك»: أين السيدة «صفيَّة»؟

بكبك: إنَّها مريضة منذ أمسِ ليلًا!

تقدَّم «تختخ» من حظيرة «يرموك» وأخذ يفحص كل شبر فيها ... على حين أخذ بقيَّة المغامرين يفحصون الأرض المحيطة بالحظيرة ... وكانت أرض الجزيرة أرضًا حجرية، وفي أجزاءٍ منها تنمو الحشائش وبعض النباتات، وعلى أطرافها يرتفع البوص إلى أكثر من قامة الرجل ... ولم يكن ممكنًا البحث عن آثار حوافر «يرموك»؛ فقد كانت أرض الجزيرة حافلةً بآلافٍ من آثار الحوافر نتيجة قيام الخيول برياضتها اليومية وآثارِ حوافرِ حصانِ الدكتور الذي يتريَّض عليه ... واستَبعَد المغامرون بعد مناقشةٍ قصيرة إمكان العثور على آثار «يرموك» بين هذه الآثار كلها.

واختار «تختخ» مكانًا ظليلًا، وجلس مع المغامرين ومعهم «بكبك».

وسأل «تختخ» «بكبك»: كيف تتم الحراسة هنا؟

قال «بكبك»: الحراس الثلاثة ... «مسعود» مع الخيول.

قاطعه «تختخ»: دائمًا؟

بكبك: نعم؛ فهو أصلًا سائسُ خيول!

تختخ: والحارسان الآخران؟

بكبك: أحدهما عادةً يكون في الراحة ... والثاني يحرس معسكر الدكتور، ومعه أحد الكلبَين ... والكلب الثاني «رعد» كما قال لك الدكتور يقوم بحراسة الإصطبلات.

قالت «نوسة»: سأذهب مع «لوزة» لزيارة السيدة «صفيَّة» وسنعود بعد قليل.

قال «تختخ»: وسنقوم نحن الثلاثة بالتجوُّل في الجزيرة بحثًا عن أي دليلٍ يفيدنا ... وسنلتقي على الغداء.

وانصرف «بكبك» مع «نوسة» و«لوزة» وقسَّم المغامرون الثلاثة الجزيرة إلى ثلاث مناطق، كلٌّ منهم اتجه إلى منطقةٍ للبحث فيها، على أن يجتمعوا بعد ساعة في المكان نفسه.

ماذا يمكن أن يترك لصٌّ سرق حصانًا من آثار؟ هكذا كان «عاطف» يحدِّث نفسه وهو يسير في الشمس الحامية متجهًا إلى الشاطئ الغربي للجزيرة المواجهة لمدينة «بورسعيد».

إنَّه بالطبع لا يترك بصماتٍ ... ولا أدواتٍ استخدمها ... إنَّه لا يترك شيئًا على الإطلاق ... ولكن مَن صاحب المصلحة في سرقة حصانٍ غالي الثمن إلى هذا الحدِّ؟ ليس إلَّا واحدًا فقط ... هو المليونير الأمريكي!

وهل يمكن أن يندفع المليونير — تحت رغبة اقتناء الحصان — إلى السرقة؟ هل يمكن أن يسرق الحصان ويخرج به من البلاد؟ وبهذه السرعة؟ ... يراه في الصباح ويسرقه في الليل؟ الإجابة عن الأسئلة كلها بالنفي.

إذن مَن الذي سرق «يرموك»؟ وكيف خرج به من الجزيرة؟ وأين ذهب به؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن يبحثوا عن إجاباتها.

محاولات

كانت المناطق التي يتكاثف فيها البوص قريبة من شواطئ الجزيرة ... وكان «محب» وهو يسير يفكِّر في أنَّه قد يجد «يرموك» في مخبأ من البوص ... وتصبح ضربة حظٍّ ممتازة ... ولكنَّه بالطبع لم يكن شديد الأمل ... فمن المستبعد أن يسرق لصٌّ أو عصابةٌ هذا الحصان الممتاز ثم يخفيه على بعد أمتار من صاحبه.

ولكنَّه على كل حالٍ أخذ يغوص تدريجيًّا في البوص الكثيف، وضوء الشمس يختفي شيئًا فشيئًا فلا يرى منه سوى خيوطٍ رفيعة ... تكشف له الطريق، وفجأةً أحسَّ «محب» بحاسة المغامر أن خطرًا يتهدَّده ... خطرٌ قريب لا يعرف ما هو ... وتوقَّف عن السير وأصاخ السمع فلم يكن هناك سوى البوص تهزُّه الريح الخفيفة فيُحدِث صوتًا كالوشوشة ولا شيء آخر ... وعاود «محب» السير ولكنَّ قلبه ما زال يحثُّه أنَّه معرَّض لخطرٍ ما ... فهل هناك شخص يتبعه؟! إنَّ صوت أقدام شخصٍ شيءٌ لا يمكن إخفاؤه ... خاصةً مع مغامرٍ متمرِّس كـ «محب» ... إذن فما هو؟

وتوقَّف مرةً أخرى عن المسير وأصاخ السمع ... ولا شيء ... وأخذ يدور بعينَيه حوله ... وشاهد مصدر الخطر ... كانت حيَّة ضخمة تزحف بين الأعشاب الخضراء مقبلةً نحوه ... وارتعد «محب» لحظة ... ثم تمالك نفسه؛ فأمام مثل هذا العدو لا يحتاج الآن إلى سلاحٍ أهم من سلاح الأعصاب الهادئة. إنَّ الثعبان كأغلب الزواحف — بل كأغلب الحيوانات المتوحِّشة — لا يهاجم إلا إذا استَثرتَه ... فهل داس عليها دون أن يدرك؟ لو حدث هذا للدَغَته على الفور ... أو لعلَّها تسير في اتجاهه نفسه. وظلت الحيَّة تتقدَّم ... ولسانها الرفيع يندفع من فمها إلى الأمام، ثم يعود سريعًا ليختفي مكانه ... وكان على «محب» أن

يفكِّر بسرعة ... إذا هاجمَتْه ماذا يفعل؟! لم يكن معه أيُّ سلاحٍ ... وتلفَّت حوله يبحث عن بوصة يمكن اقتلاعها سريعًا؛ فليس أصعب من اقتلاع بوصة من الأرض الموحلة ... ولحسن الحظ كان قريبًا منه ما يحتاج إليه ... بوصةٌ مقطوعة من جذورها ... قد اصفرَّ لونها ... وانحنى «محب» يلتقط البوصة وعيناه على الحية ... وفجأةً انقضَّت الحيَّة ... ولم يكن الانقضاض في اتجاهه ... لقد انقضَّت على جُحرٍ للفئران ... وكان فأرٌ ضخم قد خرج من الجحر! وتلفَّت حوله ... وشاهد «محب» الحية وهي تنقَضُّ كالقذيفة، وتلدغ الفأر الذي أسرع هاربًا.

وقف «محب» مكانه ساكنًا لا يأتي بحركة ... فقد كانت الحية المتوحِّشة على بُعد سنتيمتراتٍ منه ... وكان يرفع العصا فوق رأسه على استعداد ... ولكن الحية مضَت في طريقها ... وسمع حركتها السريعة بين الأعشاب خلف الفأر، وأدرك «محب» أن الفأر لن يبتعد كثيرًا، وأن الحيَّة المرعبة ستصل إليه بعد أن يحقِّق السُّم مفعوله.

مضى «محب» يتجوَّل بين البوص المتشابك ... حذرًا حتى لا يُفاجأ بحيَّةٍ أخرى.

وفي هذا الوقت كان «تختخ» يجلس على صخرةٍ قريبة من الشاطئ، إنَّه لم يضيِّع وقتًا طويلًا في التجوُّل ... فقد كان يحس أنَّ لغز اختفاء «يرموك» يحتاج إلى تفكيرٍ أكثر مما يحتاج إلى مجهودٍ عضليٍّ ... وأنَّه من الصعب العثور على آثار في الجزيرة إلا بعد مجهودٍ طويل، وقد لا يثمر.

كان «تختخ» يفكِّر في سرقة الحصان الأسود من ناحيةٍ محددة ... كلما زاد تفكيره فيها زاد اقتناعًا بأنَّها الطريقة الوحيدة للسرقة ... ولكنَّه قرَّر أن ينتظر حتى يحضر رجال الشرطة ويرى في أيِّ طريقٍ يسيرون قبل أن يخطو خطوته ... فقد يجدون هم طريقةً أسرع للعثور على الحصان ... وربَّما لا يحتاجون إلى مجهوداته.

عندما اجتمع المغامرون الخمسة بعد ساعة على حسب الاتفاق ... لم يكن أي واحدٍ فيهم قد عثَر على دليلٍ يمكن أن يكشف غموض اختفاء «يرموك»، ولكن كان كلٌّ منهم يحمل مجموعة من الأسئلة فكَّر فيها ... ولكن السؤال الذي طرحه «تختخ» كان هو أهم سؤال: هل نبح الكلب «رعد» عندما أقدم اللصوص على سرقة «يرموك» أو لم ينبَح؟

هكذا ألقى «تختخ» السؤال على «محب» و«عاطف».

وقال «محب»: أُرجِّح أنَّه لم ينبَح ... لأنه لو نبح ... لردَّ عليه «زنجر» والكلب الثاني، وليس ببعيدٍ أن يستيقظ أحد على صوت النُّباح ... إذن فإنَّ «رعد» لم ينبَح، فلماذا؟

قال «عاطف»: السبب بسيط ... إنَّ الذي سرق «يرموك» معروفٌ للكلب ... إنَّه رجلٌ يعرف الكلب جيدًا ... لهذا لم ينبَح ... ومعنى ذلك أنَّنا يجب أن نبحث حولنا ... أن نبحث بين سكان الجزيرة أنفسهم ... وفيها عدا الدكتور ورجاله ... عددٌ من الصيادين يعيشون في أكواخٍ متباعدة عن الشاطئ الجنوبي.

قال «تختخ»: على كل حالٍ دعونا ننتظر رجال الشرطة ... ولنُبقِ هذا الموضوع سرًّا بيننا؛ فلو أنَّ رجال الشرطة تنبَّهوا إلى هذه الحقيقة لذاعت، ويعرف اللص أو اللصوص الحقيقة فيختفون إلى الأبد في هذه البُحَيرة الواسعة، حيث تُوجد عشرات الجزر المنعزلة، وحيث لا يفكِّر أحد في الذهاب إليها ... ولعلكم تذكُرون حديث الخفير ... إن عددًا كبيرًا من الخارجين على القانون يعيشون في منطقة بحر البقر وجُزرها ... وإن أيَّة قوة من رجال الشرطة لا تستطيع الوصول إليهم.

ونظر «تختخ» إلى الجانب الآخر للجزيرة، حيث كان صوتٌ واضح لمحرك «لنش» يرتفع في الصمت وقال: هذا قاربٌ بخاري ... ولعلَّه قارب رجال الشرطة فتعاليا نحضُر التحقيق.

قام الثلاثة وقال «محب»: نسيتُ أن أقول لكما ... إنَّ البوص الكثيف على شواطئ الجزيرة فيه ثعابينُ من نوعٍ ضخم!

عاطف: هل قابلتَ شيئًا؟

محب: نعم ... كان لي شرف مقابلة حيَّة لا يقل طولها عن مترَين ... كانت في طريقها إلى جُحرٍ للفئران ... وكنتُ في الطريق نفسه.

قال «عاطف» ضاحكًا: لعلَّها ظنتك الفأر!

محب: لقد كانت أكثر تعقُّلًا منك.

عاطف: لعلَّها أدركَت أن الفأر ألذُّ طعمًا!

لم يَرُد «محب» فلم يكن في إمكانه مجاراة سخرية «عاطف» ... السريعة المتدفقة، ومشى صامتًا حتى وصلوا قرب المعسكر. وكان قارب رجال الشرطة قد اقترب من البَر، وبدا الدكتور «ندا» في وسط القارب يجفِّف عَرقَه ...

وقف الأصدقاء الثلاثة عند مرسى القوارب ... وظهر ضابطٌ نشيط قفز إلى البَر وخلفه الدكتور وثلاثة من جنود الشرطة مسلَّحون بالبنادق ... وأشار الدكتور إلى الحظائر، واتجه الضابط ومعه الرجال الثلاثة إلى حيث أشار الدكتور.

وسار الأصدقاء خلفهم، وسرعان ما انضمَّت إليهم «نوسة» و«لوزة»، وقالت «لوزة»: إنَّ السيدة «صفيَّة» حزينة جدًّا من أجل زوجها ... فهي تقول: إنَّ هذا الحصان هو أعزُّ شيء لديه في العالم.

نوسة: ألم تصلوا إلى شيءٍ بعدُ يا «تختخ»؟

تختخ: لقد وصلنا إلى عدة أسئلة!

نوسة: أسئلة؟!

تختخ: نعم، سننتظر لنرى ماذا يفعل رجال الشرطة وبعدها قد نُقرِّر العمل، وقد يصلون هم إلى استعادة الحصان.

لوزة: إنهم لا يعرفون طبعًا أننا مغامرون، ولنا تاريخٌ طويل في حلِّ الألغاز!

تختخ: من الأفضل أن يبقى هذا سرًّا؛ فقد لا نصل إلى أي شيء، ونصبح موضع سخرية من الجميع.

أخذ الضابط الشاب يعاين حظيرة «يرموك» في دقةٍ أُعجب بها المغامرون. لقد فحص الأرض والجدران ... ونوع الطعام ... كما شم جردل الماء بضع مرات، وقال «تختخ» هامسًا: إنَّه يبحث عن مخدِّر ... وفعلًا قد يكون اللصوص قد خدَّروا الحصان قبل سرقته.

والتفت الضابط إلى الدكتور وسأله عن عدد الرجال الذين يعملون عنده، ثم طلب إحضارهم ثم إحضار كل مَن كان على أرض الجزيرة أمسِ ... وانصرف الجنديان لهذه المهمة.

وبعد نحو نصف ساعة كان عدد لا بأس به من سكَّان الجزيرة قد حضر ... صيَّادون وزوجاتهم ... بعض العاملين في مسجد «ابن سلام» وبعض الزوَّار الذين لم يَرَهم المغامرون من قبلُ ... ووقف المغامرون الخمسة ضمن مَن حضر ... وقد شعَر «عاطف» برغبةٍ قوية في الضحك ... فهم يقفون لأول مرة في صفوف المشتبه فيهم.

ومال «عاطف» على «نوسة» قائلًا: هذا حال الدنيا ... بعد أن كنَّا مغامرين أصبحنا متهمين!

ردَّت «نوسة» في ضيق: مَن قال إنَّنا متهمون؟! إنَّه إجراءٌ ضروري أن يسأل الضابط كل مَن كان موجودًا ليلة سرقة الحصان!

عاطف: أخشى أن يتضح أنَّني أنا السارق الجسور!

نوسة: لا وقت للضحك الآن يا «عاطف».

وسكت «عاطف» ... ومضى الضابط يستجوب كل الحاضرين واحدًا واحدًا ... كان يسألهم سبب وجودهم في الجزيرة ... وأين كانوا ليلًا ... وتحرُّكاتهم حتى الصباح.

وتوقَّف الضابط عند رجلٍ متوسِّط العمر من زوَّار الجزيرة ... قال الجميع إنَّهم لا يعرفونه ... كان الرجل غريب المظهر ... طويل القامة ... يلبس ملابس الصيَّادين، ولكن من الواضح أنه ليس صيَّادًا حقيقيًّا ... فقد كانت بشرته بيضاءَ لم تُلوِّحها الشمس.

وبدا للجميع أنه أقربُ الموجودين للاشتباه.

في الليل

قال أحد الجنديَّين مقدمًا الرجل للضابط: لقد وجدتُه مختبئًا قرب الشاطئ ومعه قاربٌ صغير. وقد رفض أن يُخبرني باسمه، وسبب حضوره إلى الجزيرة ...

تركَّزتِ الأنظار على الرجل الغريب، وكان المغامرون الثلاثة يتساءلون كيف استطاع الرجل الاختباء منهم.

سأله الضابط: ما اسمك؟

لم يرُدَّ الرجل ... ولدهشة الحاضرين جميعًا اقترب من الضابط، ثم أمسكه من ذراعه وهمس في أذنه ببضع كلمات ... وازدادَت الدهشة عندما غادر الضابط مكانه وسار مع الرجل وابتعد مسافة ... ثم وقفا وأخذا يتبادلان حديثًا، ثم انصرف الرجل وعاد الضابط يواصل مهمته في استجواب الموجودين.

قالت «نوسة» هامسةً: مدهش! ماذا حدث؟

ردَّ «تختخ» هامسًا: المسألة بسيطة ... إنَّ هذا الرجل المتنكِّر في ثياب صيَّاد هو من رجال الشرطة ... ويبدو أنَّه في مهمَّةٍ سريَّة لا يريد الكشف فيها عن شخصيته ... ولكنَّه بالطبع اضطُر لكشف شخصيته للضابط المحقِّق.

محب: لماذا لم يحضر وكيل النيابة؟

تختخ: لعلَّه مشغول بجريمةٍ أخرى. وعلى كل حالٍ فإنَّ الضابط الآن يقوم بتحقيقٍ مبدئي على الطبيعة ... وسوف يأخذ المشتبه فيهم إلى القسم لاستجوابهم بواسطة النيابة!

لوزة: وماذا يفعل هذا الضابط المتنكِّر في هذا المكان؟

ابتسم «تختخ» قائلًا: هذا هو السؤال المهم ... ولكن كيف نعرف ماذا يفعل وهو يقوم بمهمَّةٍ سريَّة!

جاء دور المغامرين الخمسة ... وتولَّى «تختخ» الإجابة عن أسئلة الضابط عن أسمائهم وسبب حضورهم إلى الجزيرة، وتحرُّكاتهم ليلة السرقة، ولم تكن هناك طبعًا أيَّة شبهة حول الأصدقاء.

وبانتهاء استجواب الجميع التفت الضابط إلى الدكتور «ندا» ... وسأله: هل تشتبه في أحدٍ من الموجودين؟ فقال الدكتور «ندا»: إنَّني أثق في كل العاملين معي ... وضيوفي الخمسة طبعًا ... وهؤلاء الصيادون الموجودون في الجزيرة أعرفهم جميعًا، ولستُ أعتقد أن بينهم أي واحد يفكِّر في سرقتي.

هزَّ الضابط رأسه وقال: مسألةٌ غريبة ... ولكن سنفعل ما بوسعنا.

وأخذ الدكتور يشرح للضابط حكاية المليونير الأمريكي «وولتز» ... بينما قرَّر المغامرون الخمسة أن يأخذوا قاربًا صغيرًا «فلوكة» يدورون بها حول الجزيرة.

قال «تختخ»: إنَّها فرصةٌ أن نُلقي نظرةً على الجزيرة من الخارج ... لعلَّ ذلك يُوحى إلينا بشيء.

وأسرعوا إلى القارب الصغير وخلفهم «زنجر»، الذي كان يبدو متضايقًا من كل هذا الكلام الذي يدور حوله.

أخذ «تختخ» و«محب» يجدِّفان ... والقارب ينساب على سطح البُحَيرة الهادئة، وكلٌّ المغامرين يُدْلي برأيه في السرقة ... وقال «تختخ»: لقد تحدَّثتُ مع «محب» و«عاطف» عن الكلب «رعد» ... بأن هذا الكلب المتوحِّش لم يكن ليتركَ لصًّا يدخل الحظيرة دون أن يفتك به ... أو على الأقل ينبَح للتنبيه ... إنَّ هذا الكلب هو مفتاح القضية ... فما دام لم ينبَح فمعنى ذلك أن اللص أحد الذين يتردَّدون على المكان!

محب: إنَّني أعتقد أنَّه أحد الحرَّاس.

عاطف: لعلَّ ضابط الشرطة يصل إلى هذه الحقيقة.

نوسة: ولكن الدكتور «ندا» قرَّر أنَّه لا يشُكُّ في أحدٍ من سكَّان الجزيرة، سواء من الحرَّاس أو من الصيَّادين، ولعلَّه عندما يروي قصة المليونير الأمريكي ورغبته في شراء «يرموك» بأي ثمن ... يصبح هذا المليونير هو المتهم الأول.

لوزة: هل تعتقدون أن ضابط الشرطة المتنكِّر له علاقة بموضوع سرقة «يرموك»؟

محب: لا أعتقد ... فالسرقة لم تُكتشف إلا هذا الصباح، وليس من الممكن أن تصل الأخبار إلى الشرطة بهذه السرعة، وبخاصةٍ أنه ليس من ضباط شرطة «المطريَّة»، وإلا تعرَّف عليه الضابط الذي يقوم بالتحقيق.

ظلَّ «تختخ» صامتًا طول الوقت ... كان يجدف وهو ينظر إلى الجزيرة متأملًا دون أن ينطق بحرف ... وعرف المغامرون أنه يُدبِّر في ذهنه خطةً معينة، وأنَّه سيُخفيها عنهم حتى تنضَج ... فهذه هي عادتُه دائمًا.

وعادوا قرب الظهر إلى الجزيرة ... وكان الغَداء قد أُعدَّ. ولم تظهر السيدة «صفيَّة» فقد كانت ما تزال مريضة ... وفضَّلتْ «نوسة» و«لوزة» أن تتناولا طعام الغداء معها ...

تحدَّث الدكتور إلى الأصدقاء، وقال لهم: إن ضابط الشرطة قد انصرف بعد التحقيق المبدئي، وإن فكرته أن الحصان قد هرب إلى «المطريَّة دقهليَّة» وهي أقرب مدينة إلى جزيرة «ابن سلام» أو إلى «بورسعيد»، وأنه سيقوم بالتحري والبحث في «المطريَّة»، وسيُخطِر شرطة «بورسعيد».

سأله «محب»: ألم يشتبه في أحد؟

الدكتور: إنَّه يشتبه في الحرَّاس ... ولكن موقفهم سليم ... فأحدهم كان في حراسة معسكرنا، وهو بعيد عن إصطبلات الخيول بمسافةٍ كبيرة، كما أن المعسكر يختفي وراء أحد التلال ... والثاني كان نائمًا في عشته لأنَّه كان في فترة راحته، والثالث اعتدى عليه اللصُّ أو اللصوص وشدُّوا وثاقه.

سكت الأصدقاء ... ومضَوا يتناولون طعامهم ... وكانوا جميعًا يشعرون بالأسف من أجل الدكتور ... وبخاصة أن السرقة حدثَت بعد حضورهم بيومَين.

وعاد الدكتور يقول: سأذهب إلى «بورسعيد» لمقابلة المليونير «وولتز»؛ فإنَّني أتصوَّر أنَّه لم يشترك في السرقة، ولكن لعلَّ اللص أو اللصوص يعرضون عليه شراء الحصان.

ابتسم «تختخ» لأوَّل مرة قائلًا: هذه فكرةٌ ممتازة يا دكتور ... فمن المؤكد أنَّ السارق يعرف مدى اهتمام المليونير بالحصان ولعلَّه سَرقَه ليبيعه له.

الدكتور: هذه فكرتي ... وقد عرضتُها على الضابط.

تختخ: وهذه هي فكرتي أنا أيضًا.

قال الدكتور: إنَّك ولدٌ ذكي.

وابتسم الأصدقاء جميعًا؛ فلم يكن الدكتور يعرف أنَّ هذه المجموعة من الأولاد والبنات قد اشتركَت في حلِّ عشرات الألغاز والقضايا الغامضة ... ولعلَّه كان يتصوَّر أنَّهم «شوية عيال» لا يعرفون شيئًا.

مضت بقيَّة اليوم و«تختخ» يسير مع «زنجر» متجوِّلًا في الجزيرة ... حتى إذا هبط الظلام ... وامتدَّت السهرة حتى العاشرة، أوى الجميع إلى أماكنهم عدا «تختخ» الذي جلس أمام البرج واضعًا ساقًا على ساق ... ملقيًا رأسه إلى الخلف.

تقدَّم الليل … ونام الجميع حتى «تختخ» استسلم للنوم وهو جالس … و«زنجر» تحت قدمَيه … وعندما أشرفَت الساعة على الثالثة صباحًا تحرَّك «تختخ» من مكانه فقد آلمته عظامه … ونظر إلى ساعته ثم فرَك عينَيه وقال «لزنجر»: ستبقى هنا يا «زنجر» … حتى أعود.

تضايق «زنجر» وهزَّ ذيله، ولكن التعليمات كانت واضحة … ومشى «تختخ» محاذرًا حتى اقترب من الإصطبلات … كان الحارس في مكانه يُعِد كوبًا من الشاي … وظل «تختخ» يتأمله لحظات … كان يتصرف بشكلٍ طبيعي جدًّا … وقرَّر «تختخ» أن يُتِم جولته … مضى إلى كوخ الحارس الثالث … كان الكوخ مظلمًا … واقترب «تختخ» بهدوءٍ وحذر، ووضع أُذنه على جدار الكوخ محاولًا الاستماع إلى صوت تنفُّس الحارس … ولكن لم يستطع أن يعرف هل الحارس بالداخل، أو أنه ليس موجودًا، وقرَّر «تختخ» أن يتأكَّد فقد كان في حاجة إلى شيءٍ ولو صغيرًا يؤيد فكرته … وقرَّر أن يفتح الباب ويدخل.

وقف يتأمل الباب لحظات، كان مغلقًا، ولكن ليس إغلاقه محكمًا … فهو بابٌ قديم في كوخٍ قديم … وبمنتهى الحذر وضع يده على الباب ودفعه بهدوءٍ شديد … ولكن الباب أصدر صوتًا خفيفًا … وسمع «تختخ» في داخل الكوخ حركة، ووجد الحارس يقفز إلى الخارج وهو ينادي بصوتٍ خافت: «حافظ» … «حافظ»!

وكتَم «تختخ» أنفاسه وهو يتوارى خلف الكوخ، وشاهد الحارس وهو يقف أمام باب الكوخ منصتًا … ثم دخل وغاب لحظات، وعاد وهو يحمل بندقيته.

وأسرع «تختخ» يختفي خلف تلٍّ قريب، ودار الحارس خلف الكوخ وهو ممسك ببندقيَّته بين يدَيه … ظلَّ الحارس واقفًا لحظاتٍ ثم سار متجهًا إلى ناحية الإصطبلات. ولم يضيِّع «تختخ» وقتًا؛ فقد أخذ طريقه خلف الحارس … تاركًا مسافةً كافية بينهما حتى لا يُحس به.

وصل الحارس إلى منطقة الإصطبلات، واتجه إلى حيث يجلس الحارس الذي كان يشرب الشاي، وقال: «حافظ»!

اقترب «تختخ» ليستمع إلى كلِّ ما يدور بينهما، وسمع «حافظ» يقول له: ما الذي جاء بك؟

الحارس: لقد استيقظتُ على صوتِ فتحِ باب الكوخ، وظننتُ أنكَ الذي فتح الباب!

ضحك «حافظ» وقال: لقد أصبحتَ خفيف النوم يا «سليمان».

ثم أخذ يصُبُّ له كوبًا من الشاي وهو يقول: اشرب … وسيطر على أعصابك!

كانت الكلمات تصل إلى «تختخ» متقطِّعة، ولكنَّه كان ذكيًّا فقد جلس في عكس اتجاه الريح ... بحيث يحمل له الريح كلماتها.

وسمع «سليمان» يقول: معك سجائر؟ لقد انتهت سجائري.

حافظ: انتظر لحظاتٍ ... سأُحضر لك سيجارةً تعجبك.

ودخل «حافظ» إلى كوخ الحرَّاس، وعاد بعد قليل ... وفجأةً أحسَّ «تختخ» بشيءٍ لزج يلتصق بيده ... وأحس برعبٍ مفاجئ ... فقد تذكَّر حديث «محب» عن الحيَّات التي تسكُن شاطئ الجزيرة ... وكاد يقفز من مكانه صائحًا ... ولكنَّه في اللحظات الأخيرة تمالَكَ نفسه وسحَب يده مسرعًا ... ونظر أمامه.

حدث في الظلام

كان الشيء اللزج الذي التصق بيد «تختخ» ... هو لسان الكلب «رعد»، كلب الحراسة الضخم ... كان الكلب يزوم في هدوء ... ويهزُّ ذيله ... وأخذ ذهن «تختخ» يعمل سريعًا ... إنَّ عليه أن يُظهِر نفسه أنه يتنزَّه ليلًا ... أو ينصرف مسرعًا ... وإلَّا كشف الكلب مكانه ... ولم يجد سببًا لإخفاء نفسه عن الحارسَين.

واستقرَّ رأيه على الخطة الأولى ... قام واقفًا ... وسار بخطواتٍ نشيطة ... محدثًا صوتًا واضحًا بقدمَيه، وقفز «حافظ» قائمًا ... ممسكًا بالبندقية وقال: «مسعود»!

كان هذا اسم الحارس الثالث الذي يحرس المعسكر. وردَّ «تختخ»: إنَّني «توفيق»!

تقدَّم الحارس في الظلام قائلًا: «توفيق»؟!

تختخ: نعم ... أحد ضيوف الدكتور «ندا».

تردَّد الحارس لحظاتٍ ثم قال: مرحبًا ... ما الذي أتى بكَ في هذه الساعة؟

تختخ: لقد أُصبتُ بالأرق ... وفكَّرتُ بالتجوُّل قليلًا في هواء الليل المنعش!

حافظ: تفضَّل، اشرب الشاي معنا!

تختخ: شكرًا ... إنها فكرةٌ طيبة!

وتقدَّم «تختخ» وانضَم إلى الحارسَين، وكان واضحًا أنهما اضطَربا لرؤيته، ولكنهما أخذا يرحِّبان به وهما يصُبَّان له الشاي ... ولاحظ «تختخ» علبة سجائر ماركة «كنت» في يد الحارس «سليمان» ... ودق قلبه سريعًا ... إن حارسًا مثل «سليمان» لا يمكن أن يشتري عُلبةً من هذا النوع ... وتذكَّر الحوار الذي سَمِعه منذ قليل ... تذكَّر قول «حافظ» لـ «سليمان»: سأُحضِر لك سيجارة تُعجبُك ...

هذه هي إذن السيجارة المقصودة ... فمن أين أتى «حافظ» بعُلبة السجائرِ الفاخرة؟! دارت الأفكار في ذهن «تختخ» ... وهو يمسك كوب الشاي، وينظر إلى الحارسَين ... وأخذ

يرشُف الشاي المرَّ على مهل، وهو يضع احتمالات المرحلة المقبلة ... ولاحظ بطرفِ عينِه «حافظ» وهو يمُد يده إلى عُلبة السجائر بهدوء ثم يضعها مسرعًا في جيبه ... وأصبح شكُّه يقينًا ... إن الحارسَين بل الحرَّاس الثلاثة هم اللصوص الذين سرقوا «يرموك». وفي هذه اللحظة التقت عيناه بعينَي «حافظ»، كانت لحظة نسي فيها «تختخ» أن يُخفي مشاعره فعكسَت عيناه بجلاءٍ ما يفكِّر فيه ... وأَحسَّ فجأةً بالخطر ... فهو وحيد بين الحارسَين المسلحَين ... وما يفكِّر فيه قد انكشف.

واستجمَع كل قوَّته ليبدو عاديًّا فقال: أليس من الممكن الصيدُ الآن في البُحَيرة؟

ردَّ «حافظ» بجمود: ممكن جدًّا ... هل تُحب أن تذهب؟

كانت دعوةً كريمة للموت، وقال «تختخ»: لو كان أصدقائي معي لذهبتُ!

حافظ: هل هم نائمون؟

تختخ: أظُن ذلك!

حافظ: إذن سندعوكَ للنزهة للصيد في البُحَيرة الآن!

ووقف «حافظ» ووجَّه إلى صدر «تختخ» البندقية قائلًا: إنكَ تشُكُّ فينا!

لم يَرُد «تختخ» فعاد «حافظ» يقول: إنَّ خروجكَ ليلًا ... ونظرتكَ إلى عُلبة السجائر وما قرأتُه في عينَيك يدُل على أنَّك ولدٌ خطِر!

قال «تختخ» لـ «حافظ» بهدوء: إن ما تفعلُه الآن أشدُّ خطرًا!

حافظ: دعك من التلاعب بالألفاظ ... وهيَّا بنا ...

تدخَّل «سليمان» في الحديث قائلًا: هل أتي معك؟

حافظ: لا ... انتظر أنتَ هنا ... وسأعود قبل شروق الشمس.

وهزَّ «حافظ» بندقيَّته، وتحرَّك «تختخ» وبدأ يسير وهو يفكِّر بسرعة ... أين يذهبان؟ إن معنى قول «حافظ» ... إنه سيعود قبل شروق الشمس أنهما سيخرجان من الجزيرة ... ولكن لن يذهبا بعيدًا جدًّا ... فلم يبقَ على شروق الشمس أكثر من ساعتَين.

كان «حافظ» يسير خلفه ... ولاحظ «تختخ» أنهما يسيران في اتجاه الشاطئ الغربي للجزيرة ... الشاطئ الذي يواجه جزيرة «أبو المناديل» ... وفجأةً لمعَت في ذهنه فكرةٌ جعلَته يتوقَّف لفَرْط دهشته ... كيف لم يفكِّر من قبلُ في هذا؟

وأَحَس بفُوَّهة البندقية في ظهره ... فاستمرَّ في السير ... وكانت المسافة بيه وبين البرج الذي ينام فيه الأصدقاء لا تزيد عن خمسين مترًا ... ولو استطاع أن يلفتَ أنظارهم إليه لأمكنَهم أن يتغلَّبوا على هذا المجرم ... ولكن كيف وهم جميعًا نائمون؟!

ولكن هكذا قال «تختخ» لنفسه ... «زنجر» مستيقظ ... لقد طلَبتُ إليه أن ينتظر، وأن يقوم بالحراسة ... والريح تهُب من ناحية الغرب إلى الشرق لعلَّها تحمل رائحته إلى «زنجر»، لعلَّ «زنجر» يتنبَّه ... فماذا يفعل؟

وصلا إلى الشاطئ، وطلب «حافظ» من «تختخ» أن يركب أحد القوارب، وقاس «تختخ» المسافة بينه وبين «حافظ» وهل في إمكانه أن يقوم بحركة تمويهٍ في الظلام؟

وقف لحظاتٍ أمام القارب متردِّدًا وصاح «حافظ»: اركب ... هيَّا!

التفت «تختخ» إليه محاولًا كسب بعض الوقت، وقال: إلى أين نحن ذاهبان؟!

ردَّ «حافظ»: ليس هذا شغلك، اركب فقط!

ومدَّ «تختخ» قدَمه ليضعها في القارب ... وفي هذه اللحظة سمع الصوت الذي كان ينتظره ... صوت همهمةٍ خفيفةٍ لاهثة تأتي من ناحية البرج ... صوت «زنجر» يجري كالسهم ... ثم سمع صوت الأقدام السريعة وزمجرةً قويَّة، ثم التفت ورأى في الظلام شبح «زنجر» يقفز كالسهم في الظلام على ذراع «حافظ» التي تُمسِك بالبندقية وسمع آهةً عالية، وأدرك أن «زنجر» قد قبض بأسنانه القوية على ذراع «حافظ» ... واختل توازُن اللصِّ، واستدار «تختخ»، وبكلِّ ما يملك من قوةٍ ضرب اللص في ساقه بمقدِّمة حذائه، وسقط اللص في الماء وقد أفلتَت البندقية من يده، فانقَضَّ عليها «تختخ»، وصوَّبها إلى شبَح «حافظ» الذي اختفى تحت الماء!

وقف «زنجر» بجوار «تختخ» يلهث و«تختخ» يقول له: أنت مدهش يا «زنجر»، أنت رائع!

كان يحدِّث «زنجر» وعيناه على سطح الماء، ولكنَّه أدرك أن «حافظ» سيتمكن من الاختفاء في البوص المرتفع على الشاطئ ... وأنه محتاج إلى مساعدة في القبض عليه.

فقال لـ «زنجر»: اذهب إلى «محب» ... «محب» ... ودون أن ينتظر كلمةً أخرى، انطلق «زنجر» كالقذيفة ... ووقف «تختخ» محاذرًا ... فقد يتمكَّن اللص من الخروج من الماء على مسافةٍ منه ثم يدور حوله، وينقَضُّ عليه.

أرهف «تختخ» أُذنَيه والبندقية في يده ... وسمع حركةً قريبة في المياه، والتفَت مسرعًا والبندقية في يده ... كان يعرف جيدًا أنَّه لن يُطلِق النار ... فقد تُصيب مقتلًا من الرجل ... وهو لا يمكن أن يفعل هذا ... كل ما يتمناه أن يسيطر عليه حتى يسلِّمه لرجال الشرطة ... وفجأةً وجد القارب يبتعد في المياه ... وكان واضحًا أن «حافظ» يجرُّه وهو غاطس تحت الماء ... وفي الوقت نفسه ظهر «زنجر» يجري وخلفه عن قُربٍ «محب»، ثم «عاطف»، ثم «نوسة»، و«لوزة»، وهم جميعًا بملابس النوم.

قال «محب» لاهثًا: ماذا حدث؟

تختخ: «حافظ» ... أحد اللصوص ... إنَّه يتحرك الآن في هذا القارب.

قفز «محب» دون انتظار إلى قاربٍ من القوارب العديدة الموجودة في المرسى الصغير ... وأسرع يجدِّف مبتعدًا خلف القارب الذي اختفى في الظلام ... وصاح «تختخ»: انتظر يا «محب»!

ولكن «محب» كان قد ابتعد عن المرسى، ولم يجد «تختخ» بدًّا من أن يقفز هو الآخر في قاربٍ ثالث ... وقفز معه «عاطف» و«زنجر»، وصاح «تختخ»: اتصلي يا «نوسة» بالدكتور وقولي له ما حدث.

وقفَت «نوسة» و«لوزة» على الشاطئ تحدِّقان في الظلام ... ومن بعيدٍ ظهَرتْ سحابة الضباب الضخمة تَزحَف على الماء ... وصاحت «لوزة»: الضباب الغامض!

كانت السحابة الرمادية تسير على صفحة المياه متجهةً إلى جزيرة «أبو المناديل» وكأنَّها حيوانٌ خُرافي من عصور ما قبل التاريخ ... وبدا واضحًا للفتاتَين أن القارب الأخير الذي كان يُقِل «عاطف» و«تختخ» يتجه مسرعًا إلى قلب السحابة.

وقالت «نوسة»: إن القوارب الثلاثة تتجه إلى السحابة!

لوزة: لا شك أن قارب «حافظ» ... اتجه إليها، وتَبِعه «محب» ثم تَبِعه «عاطف» و«تختخ»! إن ذلك شيءٌ خطير ... ماذا يمكن أن يحدث في الضباب؟!

نوسة: هيَّا نسرع لإحضار الدكتور!

لوزة: ليتنا نتبعهم ... إنَّني ...

وقبل أن تتم جملتها سمعتا صوتًا يقول: ستتبعانهم!

والتفتَت «نوسة» و«لوزة»، وظهر «سليمان» ... في تلك اللحظة وهو يحمل بندقيته وقال: اركبا هذا القارب!

لم يكن أمام الفتاتَين ما تفعلانه ... فنزلَتا في أول قاربٍ على المرسى وقفز «سليمان» خلفهما ... ووضع «سليمان» ... بندقيته على ركبتَيه، ثم أمسك بالمجدافَين، وسرعان ما كان القارب الرابع ينساب في المياه متجهًا إلى قلب الضباب الغامض.

المعجزة الثالثة

كان «محب» يبذل كل جهدٍ حتى يظلَّ خلف قارب «حافظ» الذي كان يجدِّف بشدة محاولًا الهرب من «محب». وفي الوقت نفسه كان قارب «تختخ» و«عاطف» يتبع قاربَ «محب»، وشيئًا فشيئًا أخذ قارب «حافظ» يقترب من حافة كُرة الضباب الضخمة التي أخذَت تُطبِق على جزيرة «أبو المناديل».

وقال «تختخ» مخاطبًا «عاطف»: كل شيء أصبح في ذهني واضحًا ... فخلف هذا الضباب تكمن أسرارٌ كثيرة.

عاطف: و«حافظ» الآن يتجه إلى هناك!

تختخ: نعم، فهو جزء من هذه الأسرار!

عاطف: ولكن كيف يعرف طريقه في هذا الضباب؟

تختخ: إمَّا بالتعوُّد ... وإمَّا أن هناك إشاراتٍ خاصة في المياه.

وزادا من ضربات المجدافَين حتى لحقا ب «محب» تقريبًا، وقد أصبح على حافةِ كُرة الضباب الضخمة.

وصاح «تختخ»: هل ما زلت في أثَره؟

محب: حتى الآن ما زلتُ أراه ... ولكن من المؤكَّد أنه سيختفي بعد لحظات.

تختخ: إذن انتظر حتى نلحقَ بك ... فمن الأفضل أن نكون معًا!

وأخذ القاربان يقتربان ... وصاح «محب»: لقد دخل قارب «حافظ» دائرة الضباب! واحتَكَّ قارب «تختخ» و«عاطف» بقارب «محب» وقفَز الاثنان إليه.

قال «تختخ»: سنكون أَسرعَ منه، ومن الممكن أن نصل إلى الجزيرة قبله!

محب: ألا ننتظر وصول الدكتور ورجال الشرطة؟

تختخ: أخشى أن ينقلوا «يرموك» الآن إلى منطقةٍ أخرى لا نعرفها، وعلينا أن نراقبهم.

محب: ولكن كيف نراقبهم في هذا الضباب الكثيف؟

تختخ: لا أدري ... ولكن ليس أمامنا ما نفعله سوى هذا!

واندفع القارب داخلًا دائرة الضباب ... ودُهِش «محب» لفَرْط كثافته ... فهو يجلس في مقدِّمة القارب، لا يكاد يرى «عاطف» ولا يفصل بينهما أكثر من متر.

مضى الثلاثة يجدِّفون وقد فقدوا كل أثَر «لحافظ»، ومضت نصفُ ساعة وهم ماضون لا يعرفون إلى أي اتجاه ... وبدا واضحًا أن ما يفعلونه عبثٌ لا طائل تحته، وقال «محب»: وماذا بعدُ؟

لم يَرُد أحد ... حتى ظنَّ «محب» أنه وحده، فعاد يقول: «تختخ» ... ماذا نفعل بعد ذلك؟

وقبل أن يرد «تختخ» اصطدم القارب صدمةً عنيفة، وسمعوا صرخة، ودار قاربهم حول نفسه من شدة الصدمة، ثم لاحظ «تختخ» يدَين تَبرُزان من المياه وتتشبَّثان بقاربه ... وانحنى ينظر ... وإذا بوجه «حافظ» يبدو فوق المياه ... وقبل أن يفعل «تختخ» شيئًا اختفى الوجه مرةً أخرى.

صاح «تختخ»: لقد اصطدمنا بقارب «حافظ» ... استمِرُّوا في التجديف؛ ففي الأغلب نحن نسير في الطريق الصحيح.

أخذ «محب» و«عاطف» يُجدِّفان والضباب يتزايد كثافة ... وفجأةً دوَّى في الصمت صوت هدير بعيد، أخذ يتزايد شيئًا فشيئًا، ثم ظهر في قلب الضباب الكثيف ضوءٌ أصفر كاشف يشُقُّ الضباب في خطٍّ مستقيم ...

وقال «تختخ»: إنه قاربٌ بخاري يقترب منَّا ... ابتعدا عن طريقه.

وأخذوا يجدِّفون مبتعدين، وفي الوقت نفسه لاحظوا ظهور ضوءٍ أصفر آخر من قلب الضباب، ضوءٍ ضعيف ثابت.

وقال «تختخ»: إنَّ هذا الضوء صادرٌ من جزيرة «أبو المناديل» ... سنتَّجه ناحيته ... مرَّ القارب البخاري قريبًا منهم ... ولكن دون أن يظهروا في دائرة الضوء الثاقب، وتَبِعوه برغم أن الأمواج التي أثارها محركُه القويُّ كانت تلعب بقاربهم الصغير بشدة.

استمَرُّوا يجدفون فترةً طويلة، وأخذ ضوء الجزيرة الأصفر يزداد وضوحًا، ووجدوا أنفسهم قريبَين من منطقة الضوء ... وظهَرتِ المناديل المعلَّقة مغلَّفةً بالضباب. وتَسلَّل شعورٌ بالخطر إلى قلوب المغامرين الثلاثة، وكانت بأذهانهم شُهرة «أبو المناديل» الذي لا يعرفه أحد ... الذي يقضي الحاجات ويعرف الأسرار.

واقتربوا شيئًا فشيئًا من البوص الكثيف الذي يغطِّي شاطئ الجزيرة الصغيرة، وكان الزورق الكبير يرسو قريبًا منهم وقد لمعَت على جوانبه أضواءٌ صغيرة ملوَّنة، توضِّح مكانه في الضباب الكثيف.

قفَز المغامرون الثلاثة ومعهم «زنجر» إلى الشاطئ ... وأخذوا طريقهم وسط البوص الكثيف متجهين إلى حيث كان الضوء الأصفر الثابت ينير مساحةً ضيقة في الضباب، ولكنَّها كافية كي يتبيَّنوا طريقهم.

وفي هذا الوقتِ كان القارب الذي يحمل «سليمان» و«لوزة» و«نوسة» يقترب من الشاطئ أيضًا، ولم يكن يفصل القاربَين إلا أمتارٌ قليلة، وأمر «سليمان» الفتاتَين أن تسيرا أمامه ... وسار خلفهما يحمل بندقيته.

كانت «لوزة» مذهولةً تقريبًا لكل ما حدث ... وكانت أطراف البوص المُدبَّبة تشُق ثياب النوم الخفيفة التي تلبَسُها ... فتَشعُر أن عشرات الدبابيس تشكُّها في كل مكانٍ من جسمها ... وكانت تُمسِك بيد «نوسة» التي كانت تَشعُر بالوخزات التي تشعُر بها «لوزة» ... وتكتُم في صدرها آهاتِ الألم التي تريد أن تَنطلِق.

وكما كانتا تشتركان في الإحساس بالألم ... كانتا تشتركان في التفكير فيما ينبغي عمله ... فمن غير المعقول أن تقعا أسيرتَين بهذه البساطة ... على حين ينتظر «تختخ» منهما إبلاغ الدكتور بما حدث لإخطار رجال الشرطة. إنَّهما بوقوعهما بهذه البساطة تقضيان على خطة «تختخ» بل تقضيان على المغامرين الثلاثة معًا.

وكانت «نوسة» أسبق من «لوزة» إلى التفكير ... إنَّها لو استطاعت أن تبتعد بضع خطواتٍ فقط في هذا الضباب الكثيف لما استطاع «سليمان» أن يراها، وقرَّرتْ أن تغامر ... وفي الوقت نفسه تقول لـ «لوزة» ما ستفعل.

ولكن كيف؟ وفكَّرتْ أن تقول لها بالإنجليزية ... إنَّ «سليمان» لا يعرف هذه اللغة بالتأكيد ...

ولكي تُمهِّد لخطَّتها أخذَت تضغَط على يد «لوزة» ضغطاتٍ متتالية ... كأنها تنقل إليها رسالةً على طريقة «مورس»، ولدهشتها الشديدة فهمَت المغامرة الصغيرة الذكية الرسالة ... بل فعلَت ما هو أكثر ... قالت كلمةً واحدة Escape بالإنجليزية ... ومعناها «اهربي».

ولم يعلِّق «سليمان» بشيءٍ وخفَّفتْ «نوسة» يدها ... وأدركَت «لوزة» أن اللحظة القادمة بعد ثوان ... ثم تركَت «نوسة» يد «لوزة» تمامًا ... إنَّها اللحظة الحاسمة ... وانطلقَت «نوسة» تجري إلى اليمين ... وفي الوقت نفسه انطلقَت «لوزة» إلى اليسار.

كانت مفاجأةً كاملة لـ «سليمان»! كان يمسك البندقة بيدٍ واحدة ... وعندما شاهد الفتاتَين تنطلقان جريًا استولَت عليه الدهشة لحظاتٍ كانت كافية لتبتعد الفتاتان، وأضاع لحظاتٍ أخرى ثمينةً في رفع البندقية إلى كتفه، وعندما آن أوان إطلاق النار ... كانت الفتاتان قد اختفتا في الضباب.

انطلق «سليمان» يجري خلف «نوسة»، وكانت «لوزة» تجري في الاتجاه نفسه الذي يسير فيه المغامرون الثلاثة ... وسمعوا صوت أقدامها وهي تجري ... لم يكن أحدٌ منهم يتصوَّر أبدًا أنَّ هذه الأقدام الخائفة هي أقدام «لوزة» ولكن كان معهم مَن يعرف ... إنه «زنجر»، وسمعوا الكلب يزوم، ولكن تلك الزمجرة ليست بالزمجرة القوية التي يُطلِقها عندما يشمُّ رائحة عدُو ... وتوقَّفوا ... وانطلق «زنجر» في الضباب ... وبعد لحظاتٍ سمعوا صرخةً صغيرة وأصابتهم الدهشة ... وقبل أن يُفيقوا كان «زنجر» يجذب «لوزة» ناحيتهم، وبرزَت أمامهم من الضباب المغامرةُ الصغيرة تلهَث.

وقال «تختخ» وهو يربتُ على كتفِها: ماذا حدث؟

وردَت له في كلماتٍ سريعة لاهثة ما جرى لها هي و«نوسة» ... وسرعان ما كانوا يَجْرون في الاتجاه الذي أشارت إليه ... وبعد أقلَّ من خمس دقائقَ سمعوا صوت المطاردة ... ومرةً أخرى قام «زنجر» بواجبه، وانطلق كالسهم في الظلام، وسمعوا صوت زمجرته المخيفة ... وأدركوا أنه مُشتبِك مع «سليمان»، وصاح «محب»: «نوسة» ... «نوسة» ... وظهر من الضباب شبح «نوسة» ... ثم «زنجر» وهو يحمل في فمه بندقية ... وسمعوا صوت أقدامِ «سليمان» وهو يُسرِع هاربًا في الضباب!

أمسَك «محب» بالبندقية الثانية ... واتجهوا جميعًا إلى دائرة الضوء الثابتة في وسط الجزيرة ... ووصلوا إليها سريعًا ... وكمَنوا بين البوص يراقبون ما يجري ... كانت هناك أشباحٌ تتحرك في الضباب ... لم يتبيَّنوا منها الأشخاص ... ولكنهم أدركوا أن ثَمَّةَ صناديقَ ضخمة تُنقل من الشاطئ إلى وسط الجزيرة ... توقَّف النقل ... ثم سمعوا صوتَ أقدامٍ قوية ... وظهَر شبَح «يرموك» الأسود في الضباب الرمادي ... وعرفوا كل شيءٍ. لقد أخفى اللصوص «يرموك» في آخر مكانٍ يتصوَّره إنسان ... سرقوه في الضباب وأخفَوه في الجزيرة ... وها هم أولاءِ ينقلونه في الضباب مرةً أخرى.

وهمَس «تختخ» في أُذن «محب» بكلماتٍ، ثم همَس في آذانِ بقيَّة المغامرين، وابتعَد «محب» ومعه «عاطف»، وبعد لحظاتٍ رفع «تختخ» البندقية إلى أعلى وأطلق رصاصةً دوَّت بشدة في الصمت ... وبعد لحظةٍ واحدة انطلقَت رصاصةٌ أخرى من بندقية «محب».

ودبَّ الذعر في مجموعة الأشباح، وأطلق «تختخ» طلقةً ثانية ... و«محب» طلقةً ثانية، وشاهَدوا الأشباح تجري في اتجاه الشاطئ.

وتَقدَّم المغامرون من الساحة المضاءة ... و«تختخ» و«محب» يطلقان الرصاص ... وامتلأت الجزيرة بِدويِّ الطلقات وبرائحة البارود ... وانطلَق «يرموك» يجري، ولكن «زنجر» البطل قام بمعجزته الثالثة؛ فقد جرى سريعًا وأمسك باللجام المدلَّى.

وفي هذه اللحظة حدَث شيءٌ مدهش ... انطلقَت موجاتٌ من الرصاص في جهاتٍ متفرقة من الجزيرة ... وتوقَّف المغامرون وقد توتَّرتْ أعصابهم ... فقد أدركوا أن اللصوص يهاجمون، وأنَّهم سيقعون فريسةً في أيديهم.

ولكن كان هذا هو الاستنتاج الوحيد الخطأ في هذه المغامرة؛ فلم تكن الطلقات من اللصوص، لقد كانت من رجال الشرطة ... الذين بدءوا نزولهم إلى الجزيرة وأحاطوا باللصوص.

ولم يعرف المغامرون هذه الحقيقة إلا عندما سمعوا أوامرَ تصدُر من هنا وهناك ... ارفع يدَيك ... لا تتحرَّك ... وفي البداية ظنُّوا أنَّ هذه الأوامر موجَّهة لهم ... حتى إنَّ «محب» و«تختخ» ألقيا بالبندقيتَين إلى الأرض ... ولكن فجأةً ظهَرتِ الحقيقة؛ فقد برز من الضباب في دائرة الضوء وَجْه ضابط الشرطة المتنكِّر في ثياب الصيَّادين ... ثم ظهَرتِ الملابس الرسمية لرجال الشرطة وهم يسوقون أمامهم بضعة أشخاص ... كان بينهم لدهشة المغامرين الشديدة المليونير «وولتز».

اتضح كل شيء ... وانطلقَت صيحات الفرح من المغامرين ... وقال «تختخ» موجهًا حديثه للضابط: هل جئتم على صوت الطلقات؟

الضابط: نعم.

تختخ: إنَّنا نحن الذين أطلقناها ... كنا نُريد أن نُفزع اللصوص وفي الوقت نفسه نلفِت أنظار أي سفنٍ مارَّة إلينا.

الضابط: لقد كنتُ أشتبه في «وولتز» وفي الحرَّاس الثلاثة ... وقد راقبتُهم ولكنَّهم استطاعوا الإفلات من الرقابة والوصول إلى منطقة الضباب.

تختخ: هل كنتَ تتجوَّل في الجزيرة؟

الضابط: نعم ... وكدتُ أفقِد الأمل لولا صوتُ الطلقات.

بزغَت الشمس فبدَّدتِ الضباب الغامض. كما تبدَّدتْ أسطورة «أبو المناديل» وعاد «يرموك» إلى حظيرته. واتضح من التحقيقات أن «وولتز» مهرِّبٌ عالمي، وأنَّه بالاتفاق مع الغجَر

المقيمين في جزيرة «أبو المناديل» استغلُّوا أسطورة «أبو المناديل» والضباب الغامض في إدخال المخدِّرات إلى البلاد.

وعندما كان المغامرون يتناولون إفطارهم الشهي كان الدكتور «ندا» وزوجته يداعبان «يرموك»، ويتحدَّثان عن ذكاء وشجاعة الأولاد الصغار وكلبهم الأسود. ولم يتصوَّروا أبدًا أنهم مغامرون من أرفع طراز.


هنداوي